الفصل الثالث

ليبنتز

- تمهيد
- حياته وأعماله
- نظرية المعرفة
- المونادولوجيا ومبدأ الانسجام الأزلى
- العدالة الإلهية

تمهيد

يحتل "ليبنتز" مكانة مرموقة فى تاريخ الفلسفة، وليس هناك من يشك فى قيمته الفلسفية، أو يتردد فى وضعه بين كبار الفلاسفة. لم تقتصر جهوده على الفلسفة، بل امتدت إلى ميادين السياسة والتاريخ والقانون واللغة والاجتماع واللاهوت والعلم الطبيعى والرياضى. كان سياسياً بالمعنى الشامل لهذه الكلمة، وشغلته مشروعاته الضخمة فى هذا المجال، وشارك فى معظم ميادين العلم النظرية والتطبيقية؛ كما جعلته كشوفه الرياضية (*) من أعظم العلماء الرياضيين فى كل العصور. أضف إلى ذلك أنه طور الآلة الحاسبة للجمع والطرح وأصبحت قادرة على الضرب والقسمة واستخلاص الجذور مما أتاح له الانضمام إلى عضوية الجمعية الملكية البريطانية. لم يقف نشاط "ليبنتز" – فى مجال العلوم – عند هذا الحد، فقد شغل بمسائل التعدين والمناجم ومشكلاتها الفنية، مما أدى إلى اكتشافات هامة فى الجيولوجيا والطاقة [1].

كانت الفكرة السائدة عند معظم مؤرخى الفلسفة الذين تناولوا فكر "ليبنتز" بالدراسة والنقد، حتى أواخر القرن التاسع عشر، هى أن فلسفته يغلب عليها الطابع الرياضى، فنظروا إليه على أنه عالم رياضى أكثر منه فيلسوفاً. أما فى القرن العشرين فقد تغيرت هذه الفكرة بفضل ما نشره "لويس كوتوراه" من مخطوطات لم يسبق نشرها، وبفضل ما أوضحه "برتراند رسل" من آراء فى كتابه "عرض نقدى لفلسفة ليبنتز" فأصبح الرأى السائد – فى النصف الأول من القرن العشرين – أن "ليبنتز" فيلسوف أكثر منه عالماً رياضياً، ثم اختلف مؤرخوه بعد ذلك: فريق يعتقد

(*) مثل اكتشافه لحساب اللامتناهى فى الصغر أو التفاضل والتكامل.

أنه فيلسوف ما بعد طبيعى يقوم مذهبه على أسس ما بعد طبيعة خالصة "كفكرة الجوهر" أو "المونادا" (الوحدة العنصرية البسيطة) فى حين يعتقد البعض الآخر أن فلسفة "ليبنتز" يغلب عليها الطابع المنطقى الذى يصوغ مذهبه فى قضايا موضوعها يتضمن محمولاته [2].

وقد أعلن "ليبنتز" هذه الفكرة لأول مرة فى خطاب إلى "فوشيه" عام 1642، وحاول تطبيقها على فكرة الجوهر باعتباره كائناً كاملاً يحتوى على كل ما يخصه، أى باعتباره موضوعاً يتضمن محمولاته، كما تضمنت هذه الرسالة رأيه فى "الروح" كجوهر يملك المعرفة الحقيقية .

هذا وقد اعتمد الفريقان على مؤلفات "ليبنتز" وخاصة "مقال فى ما بعد الطبيعة" و "الأصل النهائى للأشياء" و "أبحاث جديدة فى الفهم الإنسانى".

* * * *

حياته وأعماله

ولد "ليبنتز" فى مدينة ليبزج Leipzing عام 1646، قبل نهاية حرب الثلاثين التى أنهكت أوروبا ودمرت ألمانيا بسنتين، وكان أبوه محامياً وأستاذاً جامعياً، وظهر نبوغه المبكر فى طفولته وسنواته الأولى، فلم يكد يتم الثامنة من عمره حتى علم نفسه اللغة اللاتينية بدون معلم أو كتاب. وأتاحت له مكتبة أبيه الضخمة أن يقوم بسياحات واسعة فى أرض المعرفة، فتمكن من الإلمام باللغات القديمة، واتجه إلى قراءة مؤلفات الشعراء والمؤرخين والكتّاب القدامى وآباء الكنيسة والفلاسفة المدرسيين، وعرف أسماء وأعمال "شيشرون" و"سينكا" و"هيرودوت" و"اكزينوفون" و"أفلاطون". ويقول عن هذه الفترة من حياته، إنه لم يفهم منهم فى البداية شيئاً، ولكنه استطاع بالتدريج أن يعرف بعض الشىء، ثم انتهى إلى معرفة ما يكفيه [3].

ويمكن أن نقسم حياة "ليبنتز" إلى أربع مراحل :

★★ المرحلة الأولى: مرحلة التكوين 1646 – 1670 :

مرحلة الدراسة وطلب العلم، ويطلق عليها اسم مرحلة "ليبزج" وقد تتلمذ فى الجامعة على يد "يعقوب تومازيوس" وكان من أكبر العارفين بالفلسفة اليونانية والمدرسية، والناقدين لها والمتنبئين بنهايتها. قرأ أعمال بيكون وجاليليو وديكارت، وحاول أن يقارن بين تفكير القدماء وتفكير المحدثين، واكتشف أن القدماء يسلمون بحقيقة الجواهر والصور، بينما المحدثين يرفضون هذه المبادئ، كما كان القدماء يميلون إلى تفسير العالم بالعلة الغائية (أرسطو) أو بالعلة الأخلاقية أو الخير (أفلاطون)، أما المحدثون، فإنهم يفسرون العالم تفسيراً آلياً ميكانيكياً. ولكن "ليبنتز" يعتقد أن التفسير الآلى، هو الأقرب إلى الحقيقة من التفسير الميتافيزيقى للعالم [4].

أما فى "بينا" فقد تتلمذ على العالم الرياضى "ازهارد فايجل" الذى لقنه أسس الرياضة وعرفه بالفلسفة الفيثاغورية والعلم الطبيعى والتفسير الميكانيكى السائدين فى عصره. ويبدو أن المحاولات التى كان يبذلها "فايجل" للتوفيق بين فلسفة أرسطو والفلسفة الميكانيكية وتطبيق المنهج الرياضى على الأخلاق والميتافيزيقيا قد تركت أثراً لا يمحى فى نفس "ليبنتز". وانشغل بالرياضة والميكانيكا ولكنه لم يستطع أن يتخلص تماماً من الفلسفة المدرسية، إذ ظل يفكر فى الفكرة القديمة عن "الصور الجوهرية" التى قال بها المدرسيون، وهل ينبغى عليه أن يتخلى عنها أو يبقى عليها فى مذهبه الجديد. وقد ظهرت آثارها فى أول بحث دراسى وضعه عن "مبدأ التفرد" ثم اتجه إلى دراسة القانون وأتمها فى جامعة "أنتدروف عام 1667 [5].

★★ المرحلة الثانية: مرحلة ماينس 1670 – 1672 :

عين مستشاراً فى مقاطعة "ماينس" حيث أمضى فيها خمسة أعوام، وجه فيها كل اهتمامه إلى المسائل السياسية والدينية. وفى عام 1670 أتم كتاباً عن "وسائل تحقيق الأمن داخل ألمانيا وخارجها"، واقترح فيه تشكيل اتحاد فيدرالى للولايات الألمانية، يكون رئيسه الحاكم المنتخب وتحتفظ كل ولاية بحكمها الذاتى. وكان يعتقد أن اتحاد ألمانيا قد تأجل لسببين :

1- عدم وجود الروح الألمانية .

2- عدم وجود مبادئ أخلاقية مشتركة تساعد على تحقيق الوحدة.

وكتب فى هذه المرحلة: "رسائل إلى دوق هانوفر" ثم "نظرية فى الحركة العينية" و "نظرية فى الحركة المجردة".

★★ المرحلة الثالثة: مرحلة باريس 1672 – 1676 :

وفى عام 1672 عين "ليبنتز" سفيراً فى باريس، وكان يهدف إلى إقناع الملك لويس الرابع عشر باحتلال تركيا. وفى هذه الفترة، استطاع أن يتعرف على علماء

فرنسا ومفكريها، كما تعرف على "اسبينوزا" وفى عام 1676، اكتشف الحساب اللامتناهى الذى خلد على مر العصور.

وفكرة "الحساب اللامتناهى"، كانت عنده فكرة ميتافيزيقية وعلمية فى الوقت نفسه، فاللامتناهى فى الصغر، معناه أننا لا نجد فى الامتداد وحدة حقيقية، وأنه لا يتألف من ذرات، أو من أجزاء لا تتجزأ، ولقد ساعد اكتشافه لهذا الحساب على تحقيق بعض النتائج مثل:

- التقريب بين العلم الرياضى والفيزياء، إذ كانت الرياضة تعنى بالكم المنفصل، بينما كانت الفيزياء تعنى بالكم المتصل.
- لقد تأكد له أن الوحدة ليست عنصراً من عناصر الكثرة المركبة، ولكن سابقة على التركيب [6].

★★ المرحلة الرابعة: مرحلة هانوفر 1676 – 1716:

لم يكن "ليبنتز" قد اكتشف بعد أهم الأفكار التى بنى عليها فلسفته، ونعنى بذلك "المونادولجيا" و "الإنسجام الأزلى". وفى عام 1676 غادر باريس إلى هانوفر، كمستشار للملك فريدريك، وأمين مكتبه. وكانت الفترة التى قضاها فى هانوفر من أخصب فترات حياته.

وفى مجال العلوم، أنشأ أكاديمية برلين لتكون راعية للعلوم الإنسانية. أما فى مجال الفلسفة، وضحت عنده فكرة "المونادا" و"الانسجام الأزلى" وكتب مقالاً عن "الميتافيزيقا" لم ينشر إلا بعد وفاته، وفى عام 1695 كتب بحثاً بعنوان: "النظام الجديد فى الطبيعة واتصال الجواهر" و "أبحاث جديدة فى الفهم الإنسانى" رداً على كتاب لوك "بحث فى الفهم الإنسانى" محاولاً التوفيق بينه وبين ديكارت. أما كتاب "الحكمة الإلهية" عام 1710 فكان رداً على كتاب المفكر الفرنسى "بيريل" (القاموس الفلسفى)، وأراد أن يوضح فى الحكمة الإلهية، أن الكمال الإلهى لا يتنافى مع وجود الشر، وأن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة.

وفى عام 1714، لخص أفكاره الفلسفية فى كتاب "المونادولوجيا" بتكليف من الأمير: "أوجين دين سافوا" وفى عام 1716 توفى "ليبنتز" الذى لم يأسف على موته إلا سكرتيره الخاص " إيكارت " فلم يشيعه أحد غيره من رجال الفكر أو الدولة[7].

* * * *

نـظرية الـمعـرفـة

تميزت فلسفة "ليبنتز" بالطابع التحليلى الذى يسعى إلى تحليل كل فكرة من الأفكار ليصل إلى ما تتضمنه من علاقات وتصورات، وليستخلص ما يكمن فيها من مبادئ وقوانين ولكن تحليله لفكرة الجوهر أو "المونادا" أدى به إلى اعتبار العالم الخارجى عالماً يتكون من وحدات حقيقية وظواهر محكمة البناء، أى من روح ومادة ومن فكرة الروح الإنسانية انتهى إلى تحديد نظريته فى المعرفة .

يقرر "ليبنتز" أن المعرفة فطرية ومكتسبة معاً ويرفض أن يوجد تعارض بين هذين النوعين من المعرفة، وبالتالى يتخذ موقفاً مخالفاً للنظريتين السائدتين فى عصره: النظرية الديكارتية التى ترى أن المعرفة فطرية، ونظرية لوك التى تعتبرها مكتسبة. حقائق الأعداد مثلاً فطرية، ولكن هذا لا يمنع من تعلمها وكذلك الحال بالنسبة للعلوم الأكثر تعقيداً، بالرغم من أن معرفتنا لها مكتسبة وتجريبية إلا أن معرفتنا الفطرية لهذه العلوم كامنة فى نفوسنا شأنها فى ذلك شأن الخطوط الموجودة فى الرمز، فإن وجودها يسبق معرفتنا أنها موجودة [8].

بعبارة أخرى، انتهى "ليبنتز" إلى القول بأن المعرفة فطرية ومكتسبة، فطرية بمعنى أن الذهن لديه القدرة على معرفتها، وأن هذه المعارف تنبثق من داخل "المونادا" (الوحدة العنصرية). ومكتسبة بمعنى أنها تتأثر بما تثيره ادراكاتها للعالم الخارجى وما تمدها به تجاربها من مادة خام تتيح الفرصة لنقل ما لديها من أفكار موجودة بالقوة إلى الوجود بالفعل. وتتقبل "المونادا" باستمرار الانطباعات الخارجية ثم تحللها – بفضل ما لديها من قوة نشطة – إلى معارف وأفكار. ولكن هذه الأفكار لا تكون واضحة ومتميزة منذ البداية، بل تبدو لأول وهلة مختلطة وغامضة، ولن تكتسب الوضوح والتميز إلا عندما تصبح موضوع تفكير "المونادا" [9].

لهذا رفض "ليبنتز" الرأى القائل بالتناقض بين المعرفة الفطرية والمعرفة المكتسبة، ويقرر وجود أفكار كامنة فى نفوسنا لا يحققها ولا ينقلها – من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل – إلا ما تثيره الأشياء الحسية وما يصاحبها من معرفة مكتسبة. وقد اعتمد "ليبنتز" فى الربط بين المعارف الفطرية والمعارف المكتسبة على "الوحدة العنصرية أو المونادا" على اعتبار أنها كائناً كاملاً يحتوى فى ذاته على كل معارفه ويتصل بالعالم الخارجى وما فيه من وحدات عنصرية أو مونادات أخرى تثير ما يكمن فى ذاته من إدراكات ومعارف .

وهنا حدد "ليبنتز" صلة المعرفة بالحقيقة من جهة وبالأفكار من جهة أخرى، فرأى أن وجود العالم الخارجى يؤكد وجود حقيقتين لا شك فيهما: الأولى أننا نفكر، والثانية أن أفكارنا مختلفة اختلافاً كبيراً، عن الأولى ينتج أننا موجودون، وعن الثانية ينتج وجود شىء آخر خلاف أنفسنا، هو علة ما فى أفكارنا من اختلاف [10].

لكن كيف يدرك العقل الأفكار ؟

يقول "ليبنتز" (من خلال عرضه لنظريته فى الأفكار).

« فى مستطاع الروح أن يتمثل أى صورة أو أى شىء عندما تتاح له فرصة التفكير فيه، واعتقد أن هذا يدل على أن الفكرة المتمثلة موجودة فى الروح سواء كنا نفكر فيها أو لا نفكر، الروح تشمل فكرة الله وسائر الماهيات والموجودات. هذا يتفق مع مبادئى، إذ من الطبيعى ألا يكتسب العقل شيئاً من الخارج، وأعتقد أن من الخطأ القول أن الروح تتقبل الرسائل كما لو كانت لها نوافذ وأبواب » [11].

يتساءل "ليبنتز": هل الروح لوحة خالية من كل أثر أم أنه مشتمل أصلاً على مبادئ كثير من النظريات والأفكار التى تثيرها الموضوعات الخارجية؟ وأجاب "ليبنتز" بوجود الأفكار الفطرية التى يقسمها إلى أفكار بسيطة وأفكار مركبة، أفكار تأتى من حاسة واحدة وأفكار تأتى من أكثر من حاسة، أفكار تنبع من الذهن

مباشرة، وأفكار يشترك فى إظهارها الحس والفكر معاً. ويتبين مدى أهمية الإدراك فى معرفة هذه الأفكار والتمييز بين الأفكار البسيطة والمركبة، الصحيحة والخاطئة، الحقيقية والوهمية. وينتهى "ليبنتز" إلى تقرير تداعى هذه الأفكار وارتباطها بعضها ارتباطاً ينتج معرفتها، وبالتالى يؤكد خطأ "لوك" فى إنكاره وجود الأفكار الفطرية وعدم الاعتراف إلا بالأفكار التى يؤيدها الواقع الخارجى .

* * * *

المونادولوجيا

ترجع فكرة "الجوهر" إلى أرسطو، والجوهر عنده هو الماهية التى يقوم عليها وجود كائن فردى معين، هذه الماهية تظل ثابتة وإن تغيرت كل الخصائص الخارجية التى تميز هذا الكائن من حجم وكيفيات وعلاقات ... إلخ. وقد دارت مناقشات عديدة حول فكرة "الجوهر" الأرسطية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ووقف منها الفلاسفة بين مؤيد ومعارض. أصر التجريبيون على رفضها وحاولوا أن يلغوها من الفلسفة، فهيوم مثلاً يرى أنها وهم وأن الجوهر ليس إلا مجموع صفاته. ودافع عنها المدرسيون لأنها كانت تمثل نقطة أساسية فى مذهبهم الفلسفى. وعارضها العقليون مثل "ديكارت" و "اسبينوزا" ولكنهم تمثلوها فى صورة أخرى معدلة مثل قول "ديكارت" بجوهرين مخلوقين هما "الفكر والامتداد"، إلى جانب الجوهر المطلق أو الله، أما "اسبينوزا" فقال بجوهر واحد لا متناه يمكن أن نسميه الله أو الطبيعة.

وقد احتفظ "ليبنتز" بفكرة الجوهر، بل جعل منها محور فلسفته، وجمع فيها بين عناصر قديمة من التراث الفلسفى إلى جانب أفكاره الخاصة، بحيث انتهى إلى تصور أصيل وجديد، واختار لها كذلك اصطلاحاً جديداً هو "المونادا" (*) لم يستخدمه إلا منذ عام 1697.

ويبدأ "ليبنتز" بالأجسام الطبيعية، فهذه الأجسام تقبل القسمة، وهى لهذا مركبة، أو هى – على حد تعبيره – جواهر مركبة. ولما كانت هناك جواهر مركبة فلابد فى رأيه أن تكون هناك جواهر بسيطة، هذه الجواهر البسيطة هى التى يسميها المونادات وهى "الذرات الحقيقية التى تتكون منها الطبيعة" [12].

(*) المونادا ليست هى الذرات ولا الجسيمات أو الجزئيات الأولية التى تتكون منها الذرة. فهى – كما يدل اسمها – بسيطة ولا تقبل القسمة وليست مادية ولا شكل لها ، كذلك لا تتكون ولا تفنى.

وإذا كانت مناهج العلم عاجزة عن الوصول إلى فكرة "المونادا" فهل يمكن أن نطبق عليها مناهج الرياضة؟ يحتمل أن تكون أبحاث "ليبنتز" عن الكميات المتناهية فى الصغر داخل حساب اللامتناهى الذى اكتشفه قد أثرت على آرائه الميتافيزيقية. الواقع أن فكرة "المونادا" ليست فكرة رياضية، لأن "ليبنتز" يعترض على وصف "المونادات" بأنها نقط رياضية. فالحقائق الرياضية – فى رأيه – تفتقر إلى الخصائص الدينامية، أنها أفكار وليست قوى أو طلقات، والمونادات فى حقيقتها مراكز حية للقوة أو الطاقة. وقد عبر عن هذه الفكرة الأساسية فى تعريفه المشهور "للجوهر" :

« **إن الجوهر كائن قادر على الفعل** ».

المونادات هى مبادئ دينامية تدخل فى الأجسام الواقعية، كما تنتج عنها هذه الأجسام. ويعتقد "ليبنتز" أن فكرة "المونادا" تقدم لنا المفتاح الذى نفسر به وضع النباتات والحيوانات والكائنات البشرية ومكانها من العالم الجسمى فى مجموعه. ففى كل كائن حى فرد توجد "مونادا" رئيسية تتحكم فى سائر المونادات التى يتألف منها. ويطلق "ليبنتز" على هذه "المونادا" الرئيسية اسم استعاره من أرسطو "الانتيليخيا" فالمونادات "انتليخيات" الموجودة فى الحيوان تسمى "النفس" والتى توجد فى الإنسان تدعى "العقل" [13].

وواضح أن فلسفة "ليبنتز" عن "المونادات" تحتفظ بالفكرة القديمة عن تسلسل الكون أو تدرجه إلى طبقات يرتفع بعضها فوق بعض. فمونادات الأجسام تحتل أدنى طبقة تعلوها المونادات التى تتحكم فى النباتات، ثم تأتى مونادات الحيوانات التى ترتفع فوقها، إلى أن نبلغ المونادات التى تتحكم فى الكائنات البشرية وتتجاوز سائر الطبقات، ثم نجد أرواحاً أسمى من الأرواح البشرية تتوسط بين الإنسان والله. وأخيراً نجد "المونادا المركزية المطلقة" والكاملة التى تعلو فوق سلسلة المونادات الفانية، ألا وهى الله.

★★ مبدأ الإنسجام الأزلى :

يؤكد "ليبنتز" أن الله حينما خلق العالم بصورته الحالية، إنما خلق أحسن عالم ممكن. وقد اختار هذا العالم بالذات من بين عدد لا حصر له من العوالم الممكنة ليكون دليلاً على عظمته وقدرته وعلمه. ومن الطبيعى أن يكون الله قد زود هذا العالم منذ الأزل بكل ما يلزمه من نظام واتساق وانسجام يحفظ استمراره ويرتب ما بين أجزائه ويكفل تحقيق كل ما يتضمنه من علاقات.

وعلى ذلك، فمن دلائل عظمة الله أن يشمل هذا العالم ظواهر محكمة البناء ومونادات حقيقية وبسيطة. وخير دليل على هذا الانسجام الأزلى ما نجده فى علاقة الروح بالجسد رغم أن كلاً منهما يعمل وفق قوانينه الخاصة. وقدم "ليبنتز" مثال "صانع الساعات" الماهر الذى يجعلها تبدأ معاً ثم يترك العملية الميكانيكية تعمل وحدها بعد ذلك. هذا هو موقف الله أيضاً، فقد وضع ابتداء من لحظة الخلق فى كل "مونادا" ما ستحتاج إليه وركبها بطريقة تجعل كل وحدة منها تبسط طبيعتها على سلوك الآخرين. هذا الانسجام لا ينقص من قدرة الله بل على العكس هو خير دليل يمكن أن نقدمه لإثبات وجود الله [14].

ولكن كيف أثبت وجود الله ؟ وما علاقته بالمخلوقات ؟

اعتمد "ليبنتز" فى إثبات وجود الله على أربعة أدلة:

1- دليل يعتمد على ما تمدنا به التجربة من حقائق عرضية ويمكن تلخيصه فى أن الكون حادث ويتألف من عدد لا نهائى من الحقائق، تحليل كل حقيقة منها يؤدى إلى ضرورة وجود علة كافية بوجودها. وهكذا .. وهذه العلة الأخيرة يجب أن تكون خارج هذه الحقيقة، أى فى جوهر واجب الوجود بذاته وهو "الله" .

2- دليل يعتمد على الحقائق الضرورية وعلى أنها تنبع كلها من عقل لديه القدرة على اختيارها دون سواها، ونقلها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل .

3ـ دليل يعتمد على مبدأ الانسجام الأزلى والنظام السائد فى الكون. هذا كله يتطلب وجود خالق كامل قادر على تحقيق هذا الانسجام .

4ـ دليل الماهية ومفاده: أن الله واجب بموجب ماهيته. فإذا كان الله ممكناً كان موجوداً. الله ممكن والممكن يقتضى الميل إلى الوجود بفضل ما فيه من كمال. ولما كان الله غير متناه فلن يعترض ميله إلى الوجود شىء مغاير له ويصبح الممكن موجوداً لمجرد كونه ممكناً [15].

* * * *

العدالة الإلهية

يوجد سؤال بالغ الأهمية، لا يقلق الفلاسفة وحدهم وإنما يقلق الإنسانية جمعاء. وهذا السؤال يتعلق بمسألة الحرية والضرورة، وأصل الشر فى العالم. ولقد تناول "ليبنتز" هذه المسألة فى كتابه "العدالة الإلهية" ثيوديسيا (*) Theodicy الذى نشره عام 1710، بناء على طلب الأميرة صوفيا شارلوت أميرة بروسيا، ورداً على كتاب الفيلسوف الفرنسى "بيريل" (القاموس الفلسفى)، الذى كان يتضمن هجوماً عنيفاً على الدين. ولقد أرادت الأميرة أن يكون هذا الكتاب تنويراً للعقول فى الكثير من المسائل الإلهية التى كانت تنشغل بها. كما أدركت بفطنتها، أن الناس جميعاً أصبحوا يطرحون هذه التساؤلات عن العدالة الإلهية، وحرية الإنسان، والعناية الإلهية فى العالم [16].

تناول "ليبنتز" فى كتابه عدة مسائل وردت فى العنوان الفرعى للكتاب وهى:

- الخير الإلهى The Goodness of God .
- الحرية الإنسانية The Freedom of Man .
- أصل الشر Origin of Evil .

وهذه المسائل الثلاث تتداخل فيما بينها، لأن الحرية الإنسانية هى سبب الشر وعلى الأقل الشر الأخلاقى أو الخطيئة، كما أن مسألة الشر ترتبط بداهة بالعدالة وفعل الخير الإلهيين.

(*) كلمة Theodicy تتألف من مقطعين من أصل يونانى :
"ثيوس" ومعناها الله .
و "ديسيا" ومعناها العدالة .

يعتقد الناس أنه إذا كان المستقبل سوف يحدث بالضرورة، فإن الإنسان – مهما فعل – لن يغير من أمره شيئاً وذلك، إما بسبب أن الله يعلم الغيب بصورة مسبقة ويحكم كل شيء فى العالم، أو بسبب أن كل شيء يحدث بالضرورة فى العالم بتتابع العلل. وكلا السببين (الإلهى والمادى) يؤديان – فى نظرهم – إلى نفس النتيجة وهى عدم جدوى العمل الإنسانى. وهذا هو قياس الإحراج الذى يستخدمه العقل المتواكل لكى يقنع نفسه بعدم العمل، فإذا كانت هناك حقيقة مقدرة من قبل على الأحداث المقبلة فرضها الله، أو فرضتها العلل الطبيعية، فإن الإنسان يجب أن يستسلم لها .

والحق أن هذه الفكرة تكشف عن مفهوم خاطئ للضرورة والقدر، فالضرورة تلغى حرية الاختيار التى هى أساس الأخلاق. إذ لا معنى للعدالة والظلم، والمدح والذم، والثواب والعقاب؛ إذا افترضنا هذه الضرورة فى أفعالنا وكيف يستطيع الإنسان أن يفعل ما يتنافى مع تلك الضرورة المطلقة، أى أن يفعل المستحيل ؟

ويلاحظ "ليبنتز" أن القول بالضرورة المحتومة يغلق الأبواب أما التقوى والإيمان ويفتحها أمام الكفر والعصيان. والذين يعتقدون بأن الله هو علة أفعالنا، وبالتالى هو علة الشر فى العالم؛ إنما يذهبون مذهب هؤلاء الوثنيين الذين كانوا ينسبون كل شيء إلى الآلهة. الله تجلت قدرته لا يجعلنا نفعل الشر، إنما نفعله بمحض إرادتنا [17].

★★ أنواع الشرور :

توجد ثلاثة أنواع مختلفة من الشر :

- الشر الميتافيزيقى (مصدره عدم الكمال والنقص).
- الشر الطبيعى (مصدره الألم).
- الشر الأخلاقى (مصدره الخطيئة) [18].

★★ الشـــر الـميتافيزيقى :

هـو شـر لم يكـن فـى وسـع اللّه أن يتلافـاه، لأنـه نتيجـة لازمـة عـن كونـه هـو الخالق الكامل ولا يمكن أن تكون مخلوقاته كاملة مثله .

★★ الشر الطبيعى أو الفيزيائى :

وهو يعبر عن الألم بكل أشكاله، ويفسر "ليبنتز" وجوده بأن اللّه لم يرده، ولكنه وجد نتيجة لتحقيق الخيرات، فإن الارتباط بين الموضوعات والأحداث وثيق إلى درجة أن بعضها لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تحقق البعض الآخر. ومن هنا كان من الضرورى – فى بعض الأحوال – من أجل إيجاد خير أكبر أن يسمح ببعض الشرور بوصفها شرطاً لتحقيق هذه الخيرات الأكبر.

★★ الشر الأخلاقى :

وهـو الخطيئـة بكـل درجاتهـا ولا يمكـن أن نـدعى أن اللّه أرادهـا لأنـه حـرم ارتكاب الخطايا .

لكن "ليبنتز" لا يفهم كيف لا تتجه القدرة الإلهية إلى الخير وعلى نحو كامل، فالإرادة والقدرة التى لا تتجه إلى الخير قد تتجه إلى الشر. واللّه لا يفعل وفقاً لقدرته وإرادته فحسب، ولكنه يفعل وفقاً لخيره وعدالته وحكمته .

* * * *

مراجع الفصل الثالث من الباب الثانى

(1) ليبنتز، المونادولوجيا: والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهى، ترجمة د. عبد الغفار مكاوى، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1978، ص15، من مقدمة المترجم.

(2) ليبنتز، أبحاث جديدة فى الفهم الإنسانى، ترجمة د. أحمد فؤاد كامل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983، ص16، من مقدمة المترجم.

انظر أيضاً:

Bertrand Russell, A Critical Exposition of The Philosophy of Leibniz, Routledge, London, 1997, p. v.

(3) ليبنتز، المونادولوجيا: والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهى، ص16، من مقدمة المترجم.

راجع أيضاً: د. على عبد المعطى محمد، ليبنتز فيلسوف الذرة الروحية، دار المعرفة الجامعية، 1980، ص17.

قارن كذلك

Nicholas , Rescher , Leibniz : An introduction To His philosophy , oxford : Blackwell , 1979 .

(4) د. نازلى إسماعيل حسين، الفلسفة الحديثة، ص86.

(5) Stuart Brown, Leibniz, University of Minnesota press, 1984, p.3.

انظر أيضاً: د. على عبد المعطى، المرجع السابق، ص19.

(6) د. نازلى إسماعيل حسين، المرجع السابق، ص90.

(7) المرجع السابق، ص91.

أيضاً: ليبنتز، المونادولوجيا، والمبادئ العقلية والفضل الإلهى، ص 24 من مقدمة المترجم.

(8) ليبنتز، أبحاث جديدة فى الفهم الإنسانى، ص62.

انظر أيضاً: ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة د. أحمد حمدى محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص59.

(9) ليبنتز، المرجع السابق، ص63.

انظر أيضاً:

Donald Rutherford, Leibniz and the Rational order of Nature, Cambridge, University press, 1995, p. 177.

(10) انظر فى ذلك: د. عبد الرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، الجزء الثانى، ص392.

(11) ليبنتز، أبحاث جديدة فى الفهم الإنسانى، ص65.

قارن كذلك :

Leibniz , Philosophical essays , edited and Transtated by Roger Ariew and Daniel Garber , Hackett pub , Co , 1989 .

(12) ليبنتز، المونادولوجيا: والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهى، ص26.

انظر أيضاً :

George Montgomery, The Rationalists, London, 1990, Leibniz, p. 455.

(13) ليبنتز، المرجع السابق، ص28.

(14) ليبنتز، أبحاث جديدة فى الفهم الإنسانى، ص35.

(15) المرجع السابق، ص36.

(16) د. نازلى إسماعيل حسين، الفلسفة الحديثة، ص153.

(17) المرجع السابق، ص161.

(18) د. عبد الرحمن بدوى، المرجع السابق، ص 394.

* * * *